

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 238 - 249
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

النخلة في البيئة الصحراوية
قيمة اقتصادية ورمزية سوسيوثقافية

الطيب العماري
قسم العلوم الاجتماعية جامعة محمد خيضر بسكرة

مقدمة

تعتبر أشجار النخيل رمزا للبيئة الصحراوية حيث إنها من أكثر النباتات تكيفا مع البيئة الصحراوية نظرا لتحملها درجات مرتفعة من الحرارة والجفاف والملوحة قد لا تتحملها كثير من النباتات الأخرى، بالإضافة إلى اعتبارها (أي النخلة) شجرة مباركة معطاءة وثمرها غذاء كامل وعلاج للأبدان.

النخل هو شجر التمر واحدته نخلة, والنخيل اسم جمع لا جمع نخلة – وهو يذكر ويؤنث فنقول هو النخل وهي النخل, أما النخيل فمؤنثه.

- نخلة التمر تسمى بالإنجليزية **Date Palm**، وهي من عائلة **Palmaceae**، ومن جنس **Phoenix**، ومن نوع **Dactylifera** وهي من النباتات ذات الفلقلة الواحدة، وهي ثنائية المسكن، أي أن هنالك نخلة تحمل أزهارا ذكرية وتسمى النخلة الذكر أو الفحل، ونخلة أخرى تحمل أزهارا أنثوية وتسمى النخلة الأنثى وهي التي تثمر[1]. ونخلة التمر لها برعم طرفي ضخم واحد فقط موجود في أعلى الساق الوحيد. وإذا أصاب ذلك البرعم الوحيد تلف فان النخلة تموت. يقول بلاتر **Blatter** أن هناك نحوا من إثنتي عشر نوعا النخيل[2].

- من أجناس النخل المتشابهة (التي يصعب التفريق بالعين المجردة بينها) ثلاثة هي:

1– نخلة التمر.

2– نخلة السكر.

3– نخلة الكنارى.[3]

يعد العالم النباتي (يتوفر استوس 372 - 287ق.م) أول من عرف النخلة في التقسيم العلمي الذي وصفه للفصائل النباتية، ونخلة التمر تنتمي إلى عائلة النخليات **PALMAE** ومن فصيلة الفينيكس من نوع الداكتلفيرا **(Phoenix Dactylifera)** وتعد النخلة من أقدم المزروعات التي

عرفها الإنسان[4].

ويدعي العالم الإيطالي: اودورادو بكاري (Odarado Beccay) المتخصص في دراسة العائلة النخيلية من النبات – أن الموطن الأصلي للنخيل المنتجة للتمور هو الخليج العربي, وقد اعتمد في تبريره لهذا الموقف بقوله: (هناك جنس من النخل لا ينتعش نموه إلا في المناطق شبه الاستوائية حيث تندر الأمطار وتتطلب جذوره وفرة الرطوبة ويقاوم الملوحة لحد بعيد). فلا تتوفر هذه الصفات إلا في المنطقة الكائنة غرب الهند وجنوب إيران، أو في الساحل الغربي للخليج العربي[5].

كما ينتشر النخيل في مناطق مختلفة من العالم مثل أمريكا واستراليا وجنوب وشمال أفريقيا، لكن يعتبر النخيل في العالم العربي هو المميز في ثماره وجودته العالية خاصة منها في العراق والسعودية ومصر والجزائر والتي يوجد بها أكثر من 400 نوع من النخيل تختلف تسميته وتسمية ثماره من منطقة الى أخرى وهناك مناطق مشهورة بتمورها ومنها منطقة الزيبان ببسكرة وطولقة وما جاورها.

تتميز النخلة بالعديد من الخصائص عن باقي النباتات ومنها:

إنها الشجرة الوحيدة من بين الأشجار الذي لا يتساقط ورقها، كما أنها الشجرة التي حظيت بأكثر التقدير والذكر والاهتمام في العصور الغابرة، كما كانت شاهد على نشأة الحضارات القديمة، ومجدت في كافة الأديان السماوية بإسهاب ولا يرمى منها شيء فكلّ جزء في النخلة له فائدة عظيمة، ثمارها، ليفها ساقها، سعفها، جريدها، ناهيك عن المواد العديدة الأخرى التي تستخرج من ثمارها وأجزائها المختلفة. ثمرها غنيّ بكلّ مقومات الغذاء اللازمة للإنسان، من ماء ومعادن وأملاح وفيتامينات وسكريات وغيره[6].

1- النخلة في التاريخ القديم:

اختلفت أراء المؤرخين في مكان نشأة النخيل .فاغلب المؤرخين يجمعون على أن بلاد العراق موطنها الأصلي بينما ذكرت في كتب أخرى في بلاد وادي الرافدين، ووادي النيل، ومناطق مختلفة من المعمورة، ففي العراق وجدت لوحة أثرية مسجل عليها طريقة إجراء عملية تلقيح النخيل، وأقدم ما عُرف عن النخل كان في بابل القديمة التي يمتد عمرها إلى حوالي أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، ولا يستبعد أن يكون النخل معروفاً قبل هذا التاريخ، فقد ثبت أن مدينة أريدو التي تقع على مسافة 12 ميلاً جنوب آور في العراق وتعد من مدن ما قبل الطوفان، ثبت أنها كانت منطقة رئيسية لزراعة النخل[7]. كما وإن النقوش السومرية التي وجدت في جنوب العراق والخليج العربي تدل على وجود النخل في تلك المنطق. وكانت هذه الشجرة المقدسة تزين ردهات المعابد الداخلية, ومداخل المدن, وعروش ذوي التيجان, فإله النخل كان يظهر على هيئة

امرأة ينتشر على أكتافها السعف كالأجنحة، حتى أن شريعة حومورابي قننت عددا من موادها لحماية زراعة النخل وتعهده. وقد خصصت شريعته المادتين الرابعة والستين (من يقطع شجرة النخيل يغرم نصفا" من نصيبه) والخامسة والستين منها بتلقيح النخيل والاهتمام به (أذا أهمل البستاني ولم يلقح البستان وتسبب في تقليل الحاصل فعليه ان يؤدي إيجار البستان) وورد في بعض المنحوتات الأشورية صور الجنود الأشوريين وقد عمدوا الى تدمير بساتين أعدائهم وتدمير نخلهم لحرمانهم من قوتهم[8]. (انظر الصور في الملاحق).

كما كان البابليون يستفيدون من التمر ونخله فوائد كثيرة. وفي القصيدة البابلية في العهد الفارسي تعداد لفوائد النخل إذ أحصيت في 365 فائدة وقد ذكر "سترابو" أهمية النخل للعراق القديم بقوله: (تجهزهم النخلة بجميع حاجاتهم عدا الحبوب). كما تصف المصادر المسمارية أصنافا كثيرة من التمر تتجاوز السبعين صنفا. كما أنها تذكر أصنافا بأسماء مواضعها مثل: تمر تلمون (يرجح أن تكون البحرين حاليا)[9].

وفي الحضارة المصرية كانت للنخلة قدسية خاصة ووجد في معابد المصريين القدماء ومقابرهم صورا" ورسوم لأجراء عملية التلقيح، لذلك فعلى الأرجح أن نخيل التمر عرف منذ حوالي 7000 سنة أو قبل هذا التأريخ. ولا شك أن نخيل التمر كانت مغروسة بمصر في عصور ما قبل التاريخ, فقد عثر الدكتور (رين هارت Dr. Rein Hardt) في مقبرة بجهة الرزيقات قرب ارمنت على مومياء من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة في حصير من سعف النخل... كما عثر على نخلة صغيرة كاملة بإحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى والي 3200 ق. م) وهذا يوضح أهمية شجر النخل[10].

2- تاريخ النخيل في بلاد المغرب:

حسب الروايات القديمة المأخوذة عن الإغريق ترى بان اليونانيون يرون بان الفينيقيين هم الذين ساعدوا على إشاعة غرس النخيل في أقاليم البحر المتوسط خاصة بلاد المغرب القديم على اعتبار ملائمة مناخ المغرب بنفس الشروط البيئية لزراعة النخيل بعد أن جلب من الشرق[11].

ويذكر البكري في كتابه أن "بلني" Pliny (80 – 23) ق. م) يذكر نخل التمر بصورة مفصلة المنتشر في كل المناطق الممتدة بين أسبانيا وإيران مرورا بالشمال الإفريقي ومصر وشبه الجزيرة وبلاد الخليج، وقد ذكر أصنافاً عديدة منها، ويصف الثمرة بقوله (حقاً أن ثمرة النخل عندما تكون بحالتها الطرية الرطبة تكون بالغة اللذة بحيث لا يستطيع الآكل أن يمتنع عن التهامها لو لم تكن عاقبة المتمادي بأكلها وخيمة)[12]، بينما تذهب روايات أخرى إلى أن نشأة واحات النخيل في بلاد المغرب القديم ارتبط بطرق وقوافل التجارة القديمة قبل تطور الأساطير البحرية البرتغالية القديمة حيث كانت القوافل القادمة من الشرق في طريقها إلى الغرب وصولا إلى شبه

جزيرة أيبيريا، تتوقف في مناطق مختلفة للراحة حول بعض الآبار التي حفروها أو بعض مجاري الأودية فيأكلون التمر الذي جلبوه معهم من الشرق (ويعتبر التمر أهم زاد لهؤلاء التجار في القديم) ثم يلقون بالنوى وبعد مدة من الزمن نمت النخيل وتحولت إلى واحات وكانت المسافة بين الواحة والأخرى تتراوح بين 20 كلم إلى 50 كلم وهي مسافة رحيل البعير في اليوم الواحد فجلبت هذه الواحات الإنسان ليستقر بقربها وبداخلها، يحتمي بظلها من حرارة الصحراء ويأخذ من منافعها المختلفة. وان كانت بعض الآراء ترجح أن ظهور زراعة النخيل في بلاد المغرب العربي تعود فقط إلى العهد الإسلامي[13].

3- قدسية النخلة:

تكتسي النخيل قدسية خاصة لدى الشعوب الشرقية القديمة والحديثة وذلك لارتباطها بمعتقداتهم الدينية والديانات السماوية ،كذلك ارتباطها بأساطير الخلق والنشأة .

فعند المصريين القدماء أخذت النخلة قدسية خاصة ووجدت في مقابرهم صورا للنخلة، وبعض من سعفها كما كانت تستخدم في لف الموتى ولها دلالات رمزية لارتباطها بالعالم الأخر[14].

أما في الديانة الصابئية المندائية وهي من أقدم الديانات التوحيدية، وورد أسمهم في القرآن الكريم في سورة الحج والمائدة والبقرة، ولغتهم اللغة الآرامية الشرقية القديمة وهي اللغة التي تحدث بها السيد المسيح (عليه السلام) فقد قدست النخلة وتسمى عندهم "السندركا وتتجسد قدسية النخلة في الديانة الصابئية المندائية في (عيد الفل) الذي يصادف شهر تشرين الأول من كل عام، ففي مثل هذا اليوم أرسل الملاك "هيبل زيوا" (الملاك جبرائيل) الملك المقرب من العرش الإلهي من جانب الله وأعطيت له المهمة لخلق الأرض وخلق الخضروات والأشجار ومن بين أول الأشجار التي خلقت كانت شجرة النخيل وقد أمر الملاك هيبل زيوا لكي يأكل منها وان المتاع الذي أختاره الملاك "هيبل زيوا" للعودة إلى تلك الدنيا كان من شجرة النخيل لذلك فأن الصابئة المندائيين ينظرون إلى هذه الشجرة نظرة مقدسة، وتبركا" بذلك اليوم الذي وجدت فيه شجرة النخيل وتناول "هيبل زيوا" من هذه الشجرة الطاهرة يحتفلون بهذا اليوم ولإتمام هذا الاحتفال يهيئون قبل يوم من العيد كمية من التمر المعزول من النوى ويضاف إليه السمسم المحمر على النار ثم تضاف إليه بعض الحبوب المعطرة ويمزج الخليط جيدا" ثم يعملون منه كرات صغيرة أو ضفائر يأكل منها كل أفراد العائلة[15].

وفي غذاء الرحمة (اللوفاني) الذي يقيمه الصابئة المندائيين ترحما" على موتاهم وتقربا" إلى الله وفلسفة ذلك هو أطعام الفقراء والجائعين وإشباعهم لعدة أيام حيث تجلب المغفرة لروح أمواتهم حيث تحضر الأطعمة المكونة من السمك ولحم ذكر الظأن أو الطيور، الخبز، البصل،

الملح الماء، الأجاص، الرمان، التمر، لب الجوز، اللوز، والخضروات.

كما كان للنخلة مكانة قدسية هامة في الديانة اليهودية حيث يعد التمر من الثمار السبع المقدسة وقد أطلق اليهود على بناتهم اسم اللفظة العبرية (تامارا) أي النخل والتمر معا" .. وذلك اعتقاداً منهم بان من يطلق عليها هذا الاسم من بناتهم ستكون جميلة القوام وخصبة وممشوقة كالنخلة صاحبة التمرة الحلوة. كما ورد في التوراة إن إقليم ميسان في جنوب العراق عبارة عن غابات لا نهاية لها من النخيل ولهذا اطلق على العراق في ذلك الوقت أرض السواد وهذا دليل على أن النخلة تعتبر إحدى معالم العراق التاريخية.

وفي الديانة المسيحية فقد ولد السيد المسيح (عليه السلام) تحتها وعندما شعرت السيدة مريم بآلام الوضع ألهمها الله أن تجلس إلى جذع هذه النخلة وهو ما ورد ذكره فى القران الكريم, وتقول كتب التاريخ أن أهل القدس قد استقبلوا نبى الله عيسى (عليه السلام) بن مريم وهم يحملون باقات من الزهور يتوسطها التمر وأنهم قد فرشوا الأرض تحت قدميه ببساط اخضر جميل من سعف النخيل عندما دخل أورشليم (بيت المقدس)[16].

أما في الإسلام فقد رفع الله سبحانه وتعالى قيمة النخلة ووضعها بثمارها المباركة في مكانة خاصة بين بقية الأشجار وذكرها في العديد من السور في القرآن الكريم منها سورة الأنعام والكهف وطه والقمر والرحمن والحاقة وجعلها من ثمار الجنة أسوة بالتين والزيتون والرمان والعنب، وكذا ذكر النخل في الحديث الشريف للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في الكثير من المواضع إذ أن للتمر في حياة الناس مكانةٌ خاصة، فهو غذاء ودواء، حيث كان من أفضل الأطعمة التي وصفها ونصح بها الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين كثيراً من فوائده: (إن التمر يذهب الداء ولا داء فيه، وإنه من الجنة وفيه شفاء). ودعا الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) لزراعتها بقوله (من الشجر شجرة تكون مثل المسلم وهي النخلة)[17]. وفي توصياته للمسلمين بقوله: "...أكرموا عمتكم النخلة" (لقد جاء في كتاب شجرة العذراء، تأليف توفيق الفكيكي ص **13**: (رواية غريبة في تسمية النخيل: روى العلامة الجليل السيد نعمة الله الجزائري في الأنوار النعمانية: إن الله أمر الملائكة فوضعوا التراب الذي خلق منه آدما في المنخل ونخلوه، فما كان لبابا صافيا أخذ لطينة آدم (عليه السلام) وما بقي في المنخل خلق الله منه النخلة وبه سميت لأنها خلقت من تراب بدن آدم وهي (العجوة). وكان آدم يأنس بها في الجنة ولما هبط إلى الأرض استوحش بمفارقتها وطلب من الله سبحانه وتعالى أن ينزل له النخلة فأنزلها وغرسها في الأرض، ولما قربت وفاته أوصى إلى ولده أن يضع معه في قبره جريدة منها فصارت سنّة إلى زمان النبي عيسى (عليه السلام) ثم اندست في زمان لفترة فأحياها النبي صلى الله عليه وسلم. وقال: "إنها ترفع عذاب القبر ما دامت خضراء"، وقد روى الجمهور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال للأنصار: خضروا صاحبكم فما أقل المخضرين يوم القيامة. وقالوا: وما التخضير؟ قال صلى الله عليه وسلم: "جريدة خضراء توضع من أصل اليدين إلى أصل الترقوة". كما ورد ذكر النخيل في القرآن الكريم في ستٌ وعشرين آيةً موزعةٌ على ستُ عشرة سورة نذكر منها: سورة مريم الآية 23 ﴿فاجأها المُخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متُ قبل هذا وكنتُ نسياً منسيا﴾ والآية 25 : ﴿وهُزِّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾

4- رمزية النخلة:

تتضح رمزية شجرة النخيل في المستوى الثقافي والأنثربولوجي في العديد من الصور فهي رمز الحياة وأول القاطنين على الأرض وتجمع الدراسات أن شجرة النخيل عند الفينيقيين كانت شجرة الحياة بل وتمَّ توحيدها مع جنة عدن في ذهنيتهم ومع رمز الخصب عشتار, كما أن هذه الشجرة كانت شجرة العائلة لدى شعوب مصر والهلال الخصيب والجزيرة العربية ونجد لها حضورا رمزيا قويا في الشعائر والطقوس الجنائزي لارتباطها بالموت والانبعاث قديما وحديثا، فإلى جانب سكب الماء وتقديم الطعام والذبائح كقرابين جنائزية على روح الميت، فان وضع الأغصان الخضراء وأسعف وجريد النخل هي من المعتقدات القديمة التي يعتقد أنها ترطب جو القبر الموحش والجاف. ونحن نعلم رمزية اللون الأخضر في أنه رمز للخصب والحياة والربيع, حتى أن الاعتقاد الشعبي يصف العروس أثناء زفافها إذا نزل المطر بأن " جرتها خضراء" أي قدمها خضراء في دلالة على الحياة والخصب[18].

وتستخدم أفرع شجرة النخيل (جريدها) في مواكب الدفن, وعند زيارة القبور وفي تزيين المقابر بالإضافة إلى مناسبات الأفراح والاحتفالات وقد وجدنا عند طوارق جانت والمناطق المجاورة لها أن أبواب منازل الحجاج عند عودتهم من البقاع المقدسة تزين بأغصان النخيل.

5- النخلة وثقافة الإنسان في الصحراء:

أ– النخلة في الأدب العربي:

يقال أن الشاعر ابن بيئته، ومن هذا المنطلق فقد كان للنخلة حضور في كثير من أشعار العرب وقصصهم نذكر منها قول امرؤ القيس في وصف حبيبته:

وفـــرع يغـــش المتنـــى أســود   فأحماثيـث كقنـو النخلـة المتعثلـك

(القنو: العذق)

ويقول الأمير الأندلسي عبد الرحمان الداخل في النخيل:

تبــدت لنـا وسـط الـرصافة نخلـة   فقلــت شــبيه بالتغــرب والنـــوى

نشــأت بــأرض أنــت فيهــا غــريبة   تنـأت بـأرض الغـرب عـن بلـد النخـل

وطـول اغتـراب عـن بنـي وعـن أهلـي فمثلـــك فـــي الأقصـــى والمنتشـــي

ويصف أمير الشعراء أحمد شوقي النخيل ويوجه لومه لعدم اهتمام الشعراء بوصفه ومديحه فيقول:

أهـــذا هـــو النخيـــل ملـــك الرياضـــي طعـــام الفقيـــر وحلـــو الغنـــي

فيـــا نخلـــة الرمـــال لمـــا تبخلـــي وأعجـــب كيـــف طـــوى ذكـــركن

ألـــيس حـــرام خلـــوى القصـــائد أميـــر الحقـــول عـــروس العـــزب

وزاد المســـــــافر والمغتـــــــرب ولاقصـــــرتي نخـــــلات التـــــرب

ولـــم يحتفـــل شعـــراء العـــرب ومـــن وصـــفكن وعطـــل الكتـــب[19]

ب– النخلة في الأمثال الشعبية في منطقة الزيبان:

تعد الأمثال مرآة لخلاصة تجربة المجتمعات خلال سنوات طويلة وغالبا ما ترتبط تلك الأمثال بالمكان الذي نشأة فيه وتقتبس بالبيئة التي انطلقت منها، ولان الإنسان يتفاعل مع بيئته ويستلهم منها لغته وفنه فان النخلة بكل أسمائها ومراحلها العمرية وإنتاجها شكلت لغة هامة في الأمثال الشعبية والتعابير الرمزية لسكان الصحراء ومن هذه الأمثال نرد بعضها التي يتداولها الناس في منطقة الزيبان :

""دار النخلة والرخلة ما تخلى"" وهو تعبير عن أهمية النخلة في الاستمرار وبركة الرزق والعيش، لان النخلة تعطي الإنسان كل ما يحتاج إليه من مأكل ووسائل مختلفة.

ويقال: ""فلان ك نخلة الطريق"" أي فيه الخير لكل الناس لان نخلة الطريق التي لا مالك لها تطعم كل المارة.

وتدل في أمثال أخرى عن الصبر والتسامح والعطاء، حيث يقال: ""اصبر كصبر النخيل"" ""يضرب بطوب ويعطي يانعا"" على حد المثل العربي القائل: (كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعا بالطوب يرمى فيرمي أطيب الثمر)

وفي وصف الإنسان الأحمق يقال: ""الطول طول نخلة والعقل عقل سخلة"" (السخلة هي أنثى الماعز الصغيرة)

وعن حتمية الموت بعد طول الزمن يقال: ""ما الطول النخلة إلا وليها قصاص""

وفي وصف الانسان الذي يدعي الطيب والإحسان وهو على عكس ذلك يقال: ""أرطب ك الليفة"" (والليفة هي جزء من النخلة ونسيج من الاشواك)

وفي الإنسان الذي يبالغ في الهزار والضحك يقال له: ""راك بديت تحلى ك اللاقمي"" (اللاقمي هو شراب يستخلص من النخلة يمتاز بحلاوة شديدة لدرجة أن البعض لا يتحملون

حلاوته).

ج- النخلة والوشم:

إن شدة تعلق إنسان الصحراء بالنخلة كرمز للعطاء والحياة جعلته يحول منها رمزا جماليا إضافيا على جمال وجه المرأة لتصبح النخلة وشمة أساسية على وجه هذه الأخيرة ينطق بكثير من العبارات والمعاني، وهذه الوشمة عبارة عن رسم لنخلة مقلوبة بذقن المرأة أصلها داخل الشفة السفلى وفرعها أسفل الذقن ومن هنا يأتي السؤال لماذا اختيار النخلة بالذات لتوشم بها المرأة وتختص بها دون الرجال ؟ نقول أن علاقة المرأة بالنخلة هي علاقة النخلة بالإنسان، النخلة المنقذة له في بحر الصحاري المتلاطم رمالا وسرابا، الصامدة له في لحج ذالك البحر المخيف، قدمت له كل ما يحتاجه الأكل الطيب والشراب اللذيذ والمسكن الآمن والأواني الصحية والزينة كل ذلك قدمته السيدة نخلة دون عناية بها تذكر وعلاوة على ذلك زينت له مظاهر الحياة متمثلة في واحة خلابة خضراء ساحرة تأخذ بالألباب لتكسبه هدوءا وسكينة وراحة نفس وصفاء وتأملا ليكون شاعرا أو فيلسوفا أو مفكرا، وطبيبا ،شجاعا لا يشق له...انه الإنسان الحقيقي بكل معنى الكلمة.

إذا كان الاختيار غير عادي حينما وشمت المرأة بصورة النخلة وبمقارنة بسيطة ندرك إن المرأة هي الحاضنة للجنين لينمو ويتخلق في رحمها وتتحمل مشقة حمله وإرضاعه والعناية به فما أشبه هذه بتلك ليس للإنسان في الصحراء وجود من سبيل للبقاء إلا رحم الأم حتى يحافظ على وجوده ونوعه وليس له أيضا في صحراء الأرض من سبيل في الحياة سوى النخلة ليأمن جوائح الجوع والعطش والحر والبرد، إذن النخلة هي الأم الثانية وعرفانا وتيقنا بذلك جعلوا وشم المرأة في وجهها تحديدا على هيئة نخلة مقلوبة أصلها داخل الشفة السفلى لتكون اقرب إلى الحياة والكلمة الطيبة وفرعها نحو الأرض لترمي أطيب الثمر وبذلك تكون كالأمين يعطيان دون انتظار ومقابل ،فما أكرم هاتين الأمين التي يجدر بنا احترامهما.

د- رمزية النخلة في الثقافة الشعبية:

إن شدة تعلق الإنسان في الصحراء بالنخلة وحبه لها جعلته يتمثلها في نفسه ولعله أصبح يحس أنها شيء منه يقتسم معها سبعة صفات وهي:

1- فهي ذات جذع منتصب يشبه انتصاب جسم الانسان.

2- ومنها الذكر والأنثى.

3- وإنها لا تثمر إلا إذا لقحت.

4- وإذا قطع رأسها ماتت.

5– وإذا تعرض قلبها لصدمة قوية هلكت.

6- وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله.

7– والنخلة مغشاة بالليف الشبيه بشعر الجسم في الإنسان.

كما رمزت النخلة أيضا للمرأة، فالمرأة تحتضن بناتها وترعاهن حتى تكن مستعدات للانفصال عنها ويكون لهن استقلالية ببناء أسرة جديدة والنخلة أيضا تحتضن "فسيلاتها"(زمراتها) حتى تصبحن قابلات للنقل الى مكان آخر فتفصلن عنها وتغرسن في أماكن مختلفة وهكذا.

ويقال عن البنت ذات القامة الطويلة بهية الطلعة "جبارة " والجبارة هي النخلة الفتية كثيرة التمر حسنة الشكل والمظهر، ويطلق على المرأة المعمرة والتي تحافظ على صحتها وعقلها تسمية "الشادة" وهي النخلة الطويلة المعمرة التي مازالت تقاوم عوامل التغيير والزمن.

وربما صارت أنواع ثمار النخل وبعض أجزائه رموزا ومفاتيح يستدل بها على بعض المواقف في العلاقات الاجتماعية أو تؤرخ بها الأحداث مثل استعارة "العرجون" رمزا للفوز ونيل المكارم، فهو "عرجون الحول" المرتجى كامتحان آخر السنة ومحصول الصابة وغاية المرام، كما صارت رمزا للشيء يطلب فلا يدركه إلا من أطالت يده وسيلة من جاه آو مال أو غيره فقيل "اليد الطويلة تلحق العرجون" وفي من فاتته غنائم أو وصله خير بعد فوات الأوان فذلك هو الذي يقال فيه "كي كان حي شاتي تمرة وكي مات علقوله عرجون"

وأطلق البعض على بناتهن تسمية "عرجونة" دلالة وتيمنا بالعطاء والخير والحلاوة فلعلها تكون كذلك.

وارتبطت شدة بياض الشيء أو المظهر ببياض "الجمار" أو "الجمارة"(بضم حرف الجيم) وهو قلب النخلة فيقال "فلان قلبه ابيض جمار" دلالة على صفاء قلبه وقد يرمز الجمار إلى رقبة النخلة أحيانا كثيرة فهو أهم جزء في جسم النخلة حيث يمثل المفصل بين جذعها ورأسها وهو ما يقابله الرقبة عند الإنسان، ومن هنا يقال عن الفتاة المتطاولة ذات الرقبة البيضاء "طلعتها جمار"

هـ– النخلة في أشكال الفن المختلفة:

للنخلة حضور في أشكال الإبداع الفني لدى الكثير من الفنانين خاصة منهم من عاش في الصحراء وفتن بجمالها ،فالأغنية الجزائرية لم تخلو هي الأخرى من حضور إبداعي رمزي للنخلة حيث كانت عنوانا للكثير من الأغاني ومنها الأغنية الرائعة للمطرب الجزائري رابح درياسة سماها " نخلات بلادي " والتي جاء في مطلعها:

ميلو ميلو يا نخلات ** والريح اللي جا يديكم**

وأنا غير نتبع فيكم ** ميلو وتباهو في العالى يا نخلات الوطن الغالي...الخ**

وجاءت في أغنية حيزية الشهيرة للشاعر" محمد بن قيطون البوزيدي" والتي غناها فنانون كثيرون منهم

"خليفي احمد" و"عبد الحميد عبابسة " ففي وصف حيزية تقول الاغنية:

"شوف الرقبة خيار من طلع الجمار" وفي مقطع آخر في الحديث عن مكانة وقيمة حيزية عند زوجها:

"تسوى غابة انخيل عند الزابية"، وايضا "تسوى نخل الدروع عند الشاوية"

لما مثلته النخلة من قيمة مادية ومعنوية عند سكان الزاب أو حتى سكان جنوب الأوراس في محاذاة الصحراء أما في الرسم فقد زينت الواحة أو النخيل رسومات ولوحات الكثير من الفنانين الكبار ممن سحرتهم النخلة بشكلها وجمالها ونذكر منهم الفنان التشكيلي "توفيق لبصير" وغيرهم.

6- الوظائف الاقتصادية للنخيل:

ظلت النخلة منذ القديم مصدر اقتصاديا أساسيا لسكان الصحراء كما ساهمت في تحول وجه الحياة للعديد من الجماعات التي سكنت الصحراء حيث أصبحت موردا أساسيا للدخل والثروة مثل سكان الزيبان في منطقة بسكرة وسكان واحات وادي ريغ ووادي سوف وورقلة والساورة وإقليم توات وجانيت وغيرها...

ولعل النخلة تعتبر الشجرة الوحيدة التي لا يرمى منها شيئا فكل عنصر منها له منافع كثيرة فتمورها كانت وما تزال غذاء أساسيا لسكان الصحراء وتمتاز التمور بكثرة تنوعها واختلاف درجات جودتها (ففي منطقة بسكرة أحصينا أكثر من 300 نوع من التمور) وهي تصنف في 3 مجموعات أساسية فمنها: الرطب – الجاف – ونصف الرطب، ومنه ما يستهلك طازجا خاصة الرطب ونصف الرطب بينما يمكن تخزين التمور الجافة على مدار السنة، وتستخدم بعض أنواع التمر في صناعة العسل الذي يطلق عليه "الروب" والمشروبات الكحولية وبعضها لصناعة الحلويات التقليدية مثل: "الرفيس" و"المقروض" و"لبراج"

ومن جذوع النخل تستخدم أسقف المنازل وأساساتها وأبوابها ومن جريدها تصنع أسقف بعض المنازل أيضا وأقفاص الطيور والمكانس والآسرة والتي يطلق غليها في المنطقة اسم "السدة" أو "اللوح" ومن سعفها تصنع الحصير والحقائب اليدوية والقفاف بكل أشكالها وأغطية الرأس (المظل) وحشو مقاعد الأثاث والمروحيات اليدوية وعلف الحيوانات.

ومن ليفها لصناعة الحبال وأدوات التنظيف، وجمارها يؤكل طازجا.

ومن عراجينها لصناعة بعض الأدوات المنزلية كالأطباق وبعض السلات.

ولقاح النخل يستخدم في التطبيب الشعبي كخلطة دواء بعد أن يضاف إليه العسل لعلاج البرود الجنسي والعقم واللاقمي يستخرج من النخلة بعد قطع رأسها وهو شراب حلو المذاق يشرب باردا كما يخمر ويستهلك.

ومن النوى يستحضر علاج طبي لأمراض الكلى والمجاري البولية، ووقودا في الأفران، وعلف للمواشي.

ومن رماد سعفها وجريدها أسمدة للنخلة نفسها.

7- النخلة والهوية الذاتية:

ولأن النخلة كانت ولازالت عنوانا لهوية سكان المنطقة فقد اتخذ منها الكثيرون اسما لمحلاتهم التجارية أو رمزا لسلعهم أو اسم لمنتجعاتهم السياحية الضخمة.

الخاتمة:

إن موضوع النخلة وعلاقتها بظهور الإنسان واستقراره بالصحراء بل علاقتها بنشأة الحضارات القديمة، بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية والرمزية الثقافية لهي مباحث واسعة تحتاج منا المزيد من الجهد والوقت والعمل والبحث، لفهم سر استقرار الإنسان الأول بالصحراء، وكيف حولت النخلة هذه الصحراء من مجال واسع ميزه الفراغ إلى جنات وحدائق غناء وواحات واسعة، كثيرا ما أغنت سكانها وأبهرت زوارها.

الهوامش:

[1]– أحمد عيسى، معجم أسماء النباتات، ط2، بيروت، لبنان، 1981.

[2]– عبد الوهاب الدباغ، النخيل والتمور في العراق –تحليل جغرافي لزراعة النخيل وإنتاج التمر وصناعتها وتجارتها، مطبعة شفيق، بغداد، 1969، ص 47.

[3]– حسن أحمد البغدادي، وفيصل عبد العزيز منسي، الفاكهة أساسيات إنتاجها، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 232.

[4]– عبد المجيد قيس، النخيل والتمور، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، هيئة المعاهد الفنية، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1990، ص 09.

[5]– عبد الجبار البكر، نخلة التمر ماضيها وحاضرها، مطبعة العاني، بغداد، 1972، ص 120.

[6]– حميد جاسم الجبوري، كتاب نخل التمر، جامعة الإمارات العربية، 1993، ص 52.

[7]– علي عبد الحسين، آفات النخل والتمور وطرق مكافحتها في العراق، الموصل، مطابع مؤسسة دار الكتب، 1974، ص 16.

[8]– النخلة المقدسة بين التراث والدين:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=107463

[9]– حميد جاسم الجبوري، المرجع السابق، ص 54.

[10]– النخلة المقدسة بين التراث والدين، الموقع السابق.

[11]– عبد الجبار البكر، المرجع السابق، ص 132.

[12]– يوسف الأنصاري، الجغرافية الطبيعية، الجزء 2، ط1، القاهرة، 1959، ص 96.

[13]– جعفر الخليلي، التمور قديما وحديثا، مطبعة المعارف، بغداد، 1956، ص 38.

[14]– النخلة المقدسة بين التراث والدين، الموقع السابق

[15]– نفس المرجع (الموقع).

[16]– النخلة المقدسة بين التراث والدين، الموقع السابق.

[17]– جعفر الخليلي، المرجع السابق، ص 61.

[18]– النخلة هي رمز الحياة: http://hannani42.yahh7.com/t19975-topic

[19]– عبد اللطيف واكد، النخيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1973، ص 117.